كانت زيارة البابا حدثاً كبيراً ومتعدّد الدلالات ومناسبة فريدة لإبراز المسيحية السورية في أصالتها وحيويتها واظهار الوشائج الأخوية التي تشدّ أبناءها الواحد إلى الآخر.
مداخلتي القصيرة هذه هي أقرب إلى محاولة قراءة تفسيرية لبعض ما جاء في كلمة صاحب الغبطة البطريرك اغناطيوس الرابع في الكاتدرائية المريمية بدمشق.

ولعلّها هذه المحاولة تلقي ضوءاً كاشفاً لا على واقعنا الأرثوذكسي الكاثوليكي فحسب بل على مسؤوليتنا ودعوتنا المشتركة.

أوّل ما يستوقفني في هذه الكلمة أنّها تضع عيشنا المشترك تحت علامتَي الحضور والحج.
فالحضور المسيحي، من حيث هو شهادة محبة مشتركة وتجذّر في بلادنا ومشاركة في الحياة العامة وحوار مع مواطنينا المسلمين، هو شاغل المسيحيين الأول في السنوات الأخيرة. وهذا الشاغل هو الركن الأوّل لخطاب مسيحي مشترك. و عليه يتأسَّس التعاضد في مواجهة المشكلات التي تترصَّد المستقبل ، وذلك من غير تهويل ولا تهوين وبعيداً عن لغة الاستنكاف والاستضعاف او منطق الاستعلاء والاستثار. أما الحج إلى الله فهو الذي يصوغ هويتنا المشتركة أكثر من الالتفات إلى ماضينا وإلى تواريخنا المنفصلة. وفيه نلاقي مواطنينا المسلمين لنسعى معاً من أجل الحق والعدل والحرية في فلسطين والعراق وسواهما.
إنّ كلمة البطريرك اغناطيوس عن القربى بين الأرثوذكس والكاثوليك تطلع من معاناة انطاكية وهي تنتمي إلى لغة تميّز بها الأنطاكيون في عملهم مع اشقائهم الكاثوليك. أن ما يتميّز به نهج الانطاكيين المسكوني ومساهمتهم الفريدة والفاعلة استوقف قداسة البابا نفسه. فيوم كان الأرثوذكس والشرقيون المتحدون بروما في أوجّ تصادمهم في أوكرانيا ورومانيا وسواهما، دعا الإنطاكيون، من خلال البطريرك اغناطيوس الرابع والبطريرك مكسيموس الخامس، الى الحوار و نبذ العنف. وكان موقفهم المشترك أشبه باعتراض على "اصطفاق" الجماعتين اللتين ينتميان إليهماالواحدة في وجه الأخرى .

لقد تناولت كلمة صاحب الغبطة اغناطيوس وثيقة البلمند ودعت إلى استئناف الحوار الأرثوذكسي الكاثوليكي العالمي المتعثّر منذ اجتماع بالتيمور في الولايات المتحدة في الصيف الماضي. و لم يكن اهتمام البطريرك بإبراز وثيقة البلمند من باب الاعتزاز باتفاق عقد على أرض انطاكية بعد اجتماع

استضافته كنيستها. بل لأنّها وثيقة تجمع بين الشجاعة والواقعية لجهة التأكيد على رفض نموذج الاتحاد بروما أو الانضمام إليها الذي عرفه تاريخ العلاقات بيننا . و لأنَّها تؤلِّف ايضاً بين الجسارة والحكمة في نقدها الجذري للفكرة التي يقوم عليها الاقتناص، أي سلخ مؤمن عن كنيسته الأصلية وضمّه إلى كنيسة أخرى. ولأنّها تضع معايير مبدئية وعملية لسياسة تدرء مخاطر الصدام، وأهمها أولية المشاورة بين الكنائس بديلاً من التبشير "عوضاً عنها" أو التوسّع على حسابها. ولعلّ التذكير بوثيقة البلمند والدعوة إلى استئناف الحوار بمثابة تعبير عن القلق تجاه ما آلت إليه العلاقات الأرثوذكسية الكاثوليكية في العالم. فالمبادئ والتوجهات العملية "البلمندية" لم توضع حيّز التنفيذ إلا بنسبة محدودة. ذلك أنّها واجهت نقداً من أوساط متشددة من الجهتين حتى استطاعت هذه الأوساط أن تشلّ الحوار برمته. فما إن طالب الأرثوذكس بالمزيد من المواقف الكاثوليكية الرافضة لكل أنواع سياسة الضمّ والاقتناص شرطاً لمواصلة الحوار حتى تصلّب الكاثوليك ورأوا في المطالبة الأرثوذكسية تراجعاً عن الاتفاق البلمندي فتراجعوا بدورهم عنه.

صحيح ان البطريرك الانطاكي اراد التمييز بين العلاقات الأرثوذكسية الكاثوليكية عندنا وتلك التي نشهدها في غير مكان من العالم. غير أنّ ذلك لم يمنعه من التعبير عن أصوات أرثوذكسية محقّة لم تندمل جراحها التاريخية بل أصابتها جراح جديدة بفعل الغزو الغربي، التبشيري والثقافي، لبلادها. ورغم أن البطريرك لم يشر بصراحة إلى ما جاء على لسان قداسة البابا في أثينا أياماً قليلة قبل زيارة المريمية، فإنه ذكر ارادة البابا الشخصية أن يفهم كنائسنا فهماً أفضل. وفي سياق التمييز بين واقعنا المحلي والواقع في أمكنة أخرى لم يتردّد البطريرك تسجيل ملاحظته عن انحسار الاقتناص عندنا مقارنة بسوانا. إلاّ أنّه لم يتجاهل الاقتناص المقنع، بفعل تلك المشاركة العشوائية في الأسرار (وهي الترجمة الأكثر دقة لعبارة Inter-communion sauvage التي صاغها المرحوم الأب جان كوربون)، والتي لا تراعي ضوابط وضعتها الكنيسة الكاثوليكية نفسها للضيافة الافخارستية. وذكر أنّ الامتناع عن هذه الممارسة والألم الذي يولده يغذّي بين المؤمنين الصادقين توقاً حقيقياً إلى الوحدة.

وليس مستغرباً أن يذكر البطريرك مسألة فهمنا لدور البابوية وهي في قلب الخلاف منذ القرن الحادي عشر وفي مقدمة قضايا الحوار المنشود. لقد قال البابا غير مرة إنه يدعو الأرثوذكس وسواهم للحوار معه في موضوع الأولية وممارستها خلال الألف الأول.و ها هو البطريرك، يقول له إننا نفهم الأولية رئاسة في المحبة لا سلطة ولا ولاية. و هو يسأل ان تزال من طريق الحوار عقبة وألا وهي إدانة المجمع الفاتيكاني الأول (لا الثاني كما كتب خطأ في الترجمة العربية) الذين لا يقولون بالعصمة البابوية.

إنّ خطاب البطريرك اغناطيوس ينطلق من فهم لسر الكنيسة وملئها من دون موارية. فحين يقول من البداية إنّ الأرثوذكس ، رغم أنّهم غير مستحقين، يعون ان تعليمهم مطابق لتراث الآباء والمجامع المسكونية وكذلك فإنّهم يعتقدون بكل تواضع أنّ الكنيسة التي أسّسها المسيح قائمة بملئها في الكنيسة الأرثوذكسية. وهو بذلك لا يقول عن الكنيسة الأرثوذكسية غير ما تقوله الكنيسة الكاثوليكية عن نفسها بل يُحجم عن الحكم على كنسيَّة الكنائس الأخرى بعكس ما فعلت بعض الوثائق الرومانية وأبرزها Dominus Iesus الصادرة عن مجمع عقيدة الإيمان صيف عام ٢٠٠٠. وهذا القول عنده ليس ادعاء حصرياً ولا نفياً لمسوغ استعمال عبارة الكنائس الشقيقة. لقد سمّت بعض الوثائق الرومانية الكنائس الأرثوذكسية كنائس خاصة فيما اقتصرت صفة الجامعة على الكنيسة الكاثوليكية. إلاّ أنّ قداسة البابا وفي خطاب الكاتدرائية المريمية أعطى إشارة تصحّح ذلك، فاستخدم مصطلح الكنائس الخاصة على نحوٍ يشمل الكنائس الكاثوليكية مستعيداً بذلك لغة الكنائس الشقيقة.

ختاماً، لقد تحدّث اغناطيوس الرابع عن لاهوت المصالحة، حيث يعتبر الأخ ساكناً قلب المسيح نفسه.دعوتنا أن نبني لاهوت المصالحة هذا لبنة لبنة، في الفكر والممارسة. لقد أعطت زيارة البابا لسوريا دفعاً قوياً لهذه العملية. وجاء لقاؤنا الطيب هذا شاهداً على هذا الدفع.

طارق متري

حلب، ١١ أيار ٢٠٠١